مملكة كانم – برنو

Deducing methodology of prophetic Hadith (PBUH) by the companion (Deductive Study)

الدكتور آدم يوسف موسى

قسم الثقافة والأدب الافريقي جامعة إفريقيا العالمية في وحدة مركز البحوث والدراسات الافريقية

رئيس تحرير نشرة الأخبار الإفريقية ومسؤول منتدى وملتقى الحوار الإفريقي

Abstract

The Kingdom of Kanem is one of the most important Islamic kingdoms that rose in the Sahara Desert between 800 AD - 1600 AD. It lasted eight or nine centuries until the nineteenth century. It spread Islam in central Sudan, and preserved the dissemination of its culture. And had it not been for the strength of its organization and its bases on which it was based, it would not have been It lived all these centuries regardless of its expansion and contraction within its borders. The study aimed to introduce the Kingdom of Kanem before and after its exploration. The study followed the descriptive analytical approach. The study concluded that those who dated the first period of Kanem were Arab travelers or geographers with useful information about the land, terrain, and divisions. As for the peoples, it was simple and did not give clear pictures for reasons including: That they did not live among the peoples and some of them passed through kingdoms in the councils of sultans unnoticed, and that some of them did not visit Africa south of the Sahara, and that the Kanem-Borno empire, which includes the region of Chad, Nigeria, Niger, Cameroon, Central Africa and other parts of Africa, where it extended and expanded and applied its fame horizons, and that the Islamic civilization and Arabic language were rooted in the scholars of Kanem and its sheikhs, and settled in their hearts and spread among them. Education was also restricted to the children of sheikhs and sultans more, and the children of the lower class, the poor did not find an opportunity to teach their young, and this had a great impact on cultural progress in the region.

ملخص الدراسة:

تعد مملكة كانم إحدى أهم الممالك الإسلامية التي قامت في الصحراء الكبرى في الفترة ما بين 800م – 1600م وقد عمرت ثمانية أو تسعة قرون حتى القرن التاسع عشر وقامت بنشر الإسلام في السودان الاوسط، والحفاظ على نشر ثقافته، ولولا قوة نظمها قواعدها التي ارتكزت وقامت عليها لما عاشت كل

هذه القرون بصرف النظر عما آلت إليه من سعة وانكماش في حدودها. هدفت الدراسة إلى التعريف بمملكة كانم قبل استكشافها وبعده. واتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. توصلت الدراسة إلى أن الذين أرّخوا للفترة الأولى من كانم كانوا من الرّحالة العرب، أو الجغرافيين بمعلومات كانت مفيدة عن الأرض والتضاريس، والتقسيمات، أما عن الشعوب فقد كانت بسيطة ولا تعطي صوراً واضحة لأسباب منها: أنهم لم يعيشوا بين الشعوب ومَرّ بعضهم عبر الممالك في مجالس السلاطين مرور الكرام، وأن بعضهم لم يزر إفريقيا جنوب الصحراء، وأنّ إمبراطورية كانم – برنو وهي تشمل منطقة تشاد ونيجيريا والنيجروالكاميرون وافريقيا الوسطى واجزاء أخرى من إفريقيا حيث امتدت وتوسعت وطبقت شهرتها الآفاق، وأنّ الحضارة الإسلامية واللغة العربية تجذرت لدى علماء كانم ومشايخها واستوطنت في قلوبهم وانتشرت بينهم، كما اقتصر التعليم على أبناء الشيوخ والسلاطين أكثر، ولم يجد أبناء الطبقة الدنيا والمساكين والفقراء فرصة لتعليم صغارهم وهذا كان له تاثير كبير على التقدم الثقافي في المنطقة.

مدخل

التعريف ببلاد السودان موقع منطقة– كانم

كان العرب أول من استخدم مصطلح السودان على الأقوام التي تقطن في جنوبي الصحراء الكبرى، والكلمة أحيانا تطلق على كل السود الإفريقيين (الأفارقة) وقد أطلقها الجاحظ في كتاب فخر السودان على البيضان[1].

واشتهر لفظ السودان على منطقة إفريقيا الغربية، على ذلك الجزء الواقع في غربي إفريقيا[2].

وحدد القلقشندي بلاد السودان من غرب البحر المحيط، ومن الجنوب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن وفي الشمال تمتد ما بين برقة بلاد البربر من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط[3].

يقول أبوالحسن علي السماني :

"والسودان في تعريف الكتاب العرب يشمل منطقة حزام السافنا السودانية والشعوب التي تسكنها من المحيط الأطلسي غرباً وفي منطقة بحيرة تشاد وبلاد البرنو شرقاً"[4].

وقد حدد الشيخ محمد بلو بلاد التكرور بأنها من بلد فور إلى فوت وما وراءها وما والاها بحسب الأمكنة[5].

يبين داو سيال في مقال له بعنوان: توطئة جغرافية وتاريخية عن السودان الغربي، ورد كثيرا مصطلح (السودان الغربي) في كتب التاريخ وادب الرحلات الإفريقية، ويعني به الشريط الإقليمي المستطيل من بحيرة تشاد وما جاورها شرقاً إلى السنغال أقصي غرب إفريقيا[6].

قيام المملكة والأسرة الحاكمة

وقد قامت مملكة كانم في هذه الرقعة، وكان شعبها متنقلا بين هذه المناطق شمالها، وجنوبها، شرقها، وغربها. كانت منطقة بحيرة تشاد ماهولة بالشعوب التي تعمل بالزراعة والرعي والصيد.

وأن بداية تقنيات معالجة الحديد كانت تمارس في القرن السابع الميلادي، ففي كورو تورو بين بحيرة تشاد وتبيستي، اكتشفت آثار حضارة قوامها تعدين الحديد عرفت بالاسم العربي (الحداد) لتلك الصنعة وازدهرت بين القرنين الرابع والثامن الميلادين، وتدل الأواني الفخارية المطلية التي عثر عليها في هذين الموقعين على وجود صلة وثيقة بينهما وبين اثنتين من حضارات وادي النيل، هما حضارتا مروي والنوبة أثناء فترتها المسيحية[7].

ويتبين من هذه البيانات الأركيولوجية القليلة عن الحديد أن منطقة بحيرة تشاد لم تبرز– قبل تأسيس كانم بوصفها عامل توحيد بقدر ما برزت بما اتسمت به من فروق ومستويات تنمية متباينة وقد ازدهرت المنطقة بالتجارة، ونشأت مملكة قديمة في فزان هي مملكة الغرامانت، ويشار إلى أنها أدت دورا في تنظيم التجارة.

وأشارت المصادر الأولي التي وجدت إلى الزغاوة، وأول ذكر في المصادر المكتوبة كانت لليعقوبي سنة 258هـ – 872م، وإلى الحوصيين، وانتهت سيطرة الزغاوة في منتصف القرن الحادي عشر بمجيء اسرة (السيفيين)التي اشتقت الاسم من البطل اليمني سيف بن ذي يزن، ومؤسس الاسرة هو (حماي) (1075–1090) وثمة مؤشرات تدل على أنه من أصل بربري.

وقد اهتم بلاط كانم بالأصل العربي لدواع تتعلق بالسلطة، وبالإسلام، فقد ورد في رسالة من برنو تاريخها في نهاية القرن الرابع عشر، يرجع نسب سيف بن ذي يزن إلى قريش، ولم تكن كانم وحدها من نهج هذا المنهاج فكثيرمن حكام الممالك في إفريقيا يسعى لربط نسبه بالبيت النبوي لأهداف تمكنه من السلطة بشكل أقوى.

فالروايات المحكية حول تاريخ كانم يشوبها الكثير من الغموض والخرافات.

وتحتاج إلى مزيد من الأبحاث الجادة، فالبحوث الاركيولوجية تشير إلى وجود حضارة قوية في منطقة السودان الأوسط، وأن كل الإثنيات التي ساهمت في تأسيس مملكة كانم تعود إلى أصل واحد، ولكنها توسعت وتفرعت وتعود اللغة التي يتحدثونها (الكانمبو، التبو(دزا)، الزغاوة)إلى أصل واحد.

وتشير الروايات الواردة في (الديوان) إلى تحالفات التزاوج بين ملوك كانم وبين مختلف الجماعات البدوية التي رأى الملوك براعتها الحربية سندا في ترسيخ سلطتهم[8].

اتصل تاريخ كانم بحكم أسرة (السيفيين) وقد اتسم حكم البلاد في أيامهم بالإقطاعيين القبلية، وكان فيها مجلس شوري يتكون من اثني عشر شخصا يشرفون على تدبير الأوامر الامبراطورية، وكان هؤلاء ينتمون جميعا إلى الأسرة الحاكمة، اشتد بينهم الخصام وتحولت إلى معارك .

وكان يطلق على الطبقة الحاكمة في كانم اسم ماغومي، وهي كلمة يعود أصلها في الكانوري إلى ماي ومعناها (الملك).

وماجيرة **Maghira** لقب الملكة الوالدة ولها شأن في البلاد. وغالبية السكان كانوا يعيشون في صورة عشائر ومجموعات عرقية مستقلة، وعرف الرحالة والجغرافيون مملكة كانم في وقت مبكر، وتعدت شهرة المملكة بكثير شهرة الكيانات السياسية الأخرى الواقعة فيما بين نوبة وادي النيل، والكوكا المقيمين في منعطف النيجر، وقد جاء ذكر مملكة كانم في مصادر خارجية وداخلية منها "ديوان سلاطين كانم – برنو"، وترجع كتابة الديوان على أغلب الظن إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر[9].

تقول سجلات البرنو وأساطيرهم إن ملوكهم الأوائل أحد عشر ملكا، وإن أولهم سيف بن ذي يزن وآخرهم جيل أو عبدالجليل شو وعرف باسم(سلما وشلم) [10]، وتقدر الفترة التي حكم فيها هؤلاء الملوك بنحو خمسة قرون، وذلك على الرغم من أنه ثابت علميا أن سيف بن ذي يزن وأبنه إبراهيم الذي يزعم انه ثاني هؤلاء الملوك قد ماتا في اليمن، وأن ثالث الملوك هو دوغو بن إبراهيم، ومنح لقب الماي، وأنه مؤسس للأسرة باعتباره أول من لقب بالماي[11].

والحقيقة أن تاريخ كانم يمكن قراءته بشكل واضح بعد دخول الإسلام، ويتفق المؤرخون على أن دونمة ديبلامي هو الملك العظيم في تاريخ كانم، فقد قاد حملة إلى الجنوب وغزا القبائل الوثنية وفي الشمال امتد نفوذه إلى الصحراء الجنوبية بأسرها، وحتى القرن الثالث عشر كانت دولة كانم هي السائدة وبرنو مجرد إقليم في الأطراف، وكان مركز الإمبراطورية هو حوض تشاد بيد أن الحكام ادركوا في وقت مبكر أهمية تأمين طرق التجارة وقد ضمنوا تأييد قبيلة التبوا التي تعيش في الصحراء وذلك بالزواج ببنات رؤسائها، وبذلك استقرت العلاقات التجارية[12].

وفي القرن الثالث عشر أدت سياسة التوسع والتكامل التي بدأها خلفاء دونمة الأول إلى ظهور كانم كدولة عظيمة، وقد امتدت دولة كانم في القرن الرابع من الجندل الأول شرقا إلى النيجر غربا، ومن إقليم طرابلس شمالا إلى بولاد جنوبا وقد تحرك الكانمبو بمحاذاة الواحات إلى فزان مؤسسين مستعمراتهم على طول الطريق[13].

وينقسم تاريخ إمبراطورية كانم – برنو إلى عصرين :

1- العصر الكانمي: ويمتد من قيام الإمبراطورية في إقليم كانم إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي .
2- العصر البرنوي: يبدأ من أواخر القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية إمبراطورية البرنو عند دخول الاستعمار الاوربي إلى إفريقيا.

التسمية (كانم)

إن كلمة(كانم) تدل على " جنس من السودان" فيقال بلاد الكانم أو مملكة الكانم، كما قيل صاحب الكانم[14].

كانِم ، كسر النون :من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان، وقيل :كانم صنف من السودان، وفي زماننا هذا شاعر بمرّاكش المغرب يقال له الكانمي مشهود له بالإجادة ولم أسمع شيئا من شعره ولا عرفت اسمه، قال البكري :بين زويلة وبلاد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء من بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم، وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم ببني العباس، وهم على زي العرب وأحوالها .([15])

والكانم بلد مسلم مستقل بينه وبين بلاد مالّي { مسافة بعيدة جدا، قاعدة ملكه} «بلد اسمها جيمي »، مبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زلا ، وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكا .[16]

فقد أشار اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي إلى (الكانم) باعتبارها موضعا أو مكانا، وفي هذا ورد أول ذكر لكانم في المصادر المكتوبة في نص كتبه اليعقوبي سنة 258هـ -872م[(17)].

وابن سعيد فقد قال: ويليهم الكانم وهو خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم جيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها[(18)].

وهناك مراجع مهمة تناولت تاريخ كانم – برنو مثل: كتابات المؤرخ الإمام أحمد فرتو – حروب إدريس اللوما، وقد كتب جزأين من تاريخ عهد الماي إدريس اللوما.

والمراجع الأصلية مثل (ديوان السلاطين)، فهذا يضم أسماء المايات من الأسرة السيفية، ومؤلفه الشيخ سفرمة عمر بن عثمان، وظهرت مؤلفات في أوائل القرن السادس عشر، وأول من عثر عليها بارث الألماني في العام 1853م .

وهناك الوثائق المعروفة باسم (المحارم) وهي التي أصدرها سلاطين برنو في العهود المختلفة، تتميز عن أحتوائها للمعلومات الخاصة بأحوال ونظم المملكة الداخلية.

وكتاب الفتاش الذي أشار فيه مؤلفه محمود كعت بدولة كانم– برنو، ومن المؤرخون: اليعقوبي، وابن حوقل، والمسعودي، والبكري، والإدريسي، والعمري، وإبن بطوطة، وابن خلدون، والقلقشندي، والمقريزي، وحسن بن محمد الوازن الفاسي، لقد جاءت كل هذه المؤلفات باللغة العربية، فالإمام أحمد بن فرتو رئيس العلماء ومؤرخ بلاد كانم – برنو في عهد الماي إدريس اللومة، قد سجل حروباته في شتى الميادين وكانت أيضاً مؤلفاته بالعربية، وعثر عليها بارثخلال رحلته، ونشرها أمير كانو في العام 1930م وترجمها بالمر في كتابيه، والنصوص المكتوبة بالعربية من المؤسف أنها مفقودة، له مؤلفاته: تاريخ الاثنتي عشرة الأولي من حكم إدريس اللوما – حروب البولالا[(19)].

بعد ذلك نجد كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة، ويأتي في مقدمتهم بارث**Barth** الألماني، وكانت زياراته ما بين 1849- 1855م، وجمع عدد من الوثائق بالعربية، وإن كل المخطوطات التي عثر عليها أرسلها

إلى جمعية ليبزج للدراسات الشرقية عام 1852م، كما عثر على مؤلفات أحمد بن فرتو وأرسله إلى ملكة انجلترا واستعان بها كمراجع لمؤلفه الذي صدر بعد ذلك **Traels and piscovaries in Noth and central Africa** وكذلك الميجور دنهام، والكابتن كلابرتون والرحالة أودين، وظهرت رحلاتهم الإستكشافية في كتاب

Narrative of travels and piscoveries in Nothern and central Africa in the years 1822 – 1923 and 1824.

وفوجل **Vogel**_(1854 – 1856) وبيرمان **Berrman** الذي أدى عمله بتكلفة الملك ولهلم ملك بروسيا يحمل رسالة ومعها هدايا إلى سلطان برنو الشيخ عمر بن محمد الامين الكانمي (1870-1872م) ومونتي **Montail** وبروان **Brown** وبالمر **Palmer**

ومن المؤلفات المعاصرة: إمبراطورية البرنو الإسلامية، لإبراهيم علي طرخان، وتاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا، ك. مادهوبانيكار، و**Studies in wewt African – Islamic History** للمؤلف- جون رالف ويلز **John Willis** والعهد الذهبي لإمبراطورية كانم، فضل كلود الدكو، والأخيرة أحدث الكتابات وهي رسالة دكتوراة.

إن الذين أرخوا للفترة الأولى من كانم كانوا من الرحالة العرب، أو الجغرافيين بمعلومات كانت مفيدة عن الارض والتضاريس، والتقسيمات، أما عن الشعوب فقد كانت بسيطة ولا تعطي صوراً واضحة لأسباب منها أنهم لم يعيشوا بين الشعوب ومر بعضهم عبر الممالك في مجالس السلاطين مرور الكرام، وأن بعضهم لم يزر إفريقيا جنوب الصحراء .

وقد كان العرب يقسمون المنطقة إلى الحبشة، إثيوبيا، وبعض الدول المجاورة لها، والسودان من السودان الحالي إلى السنغال، وبلاد الزنج وتشمل هذه إفريقيا الجنوبية مثل: انغولا، وموزمبيق، وجنوب إفريقيا، وبتسوانا .. الخ.

وهنالك كتابات عن كانم جاء منها دلالات وإشارات لشعوب المنطقة، ولابد لنا أن نذكر التعريف ببلاد السودان، لأن شعوب هذه المنطقة كانت تنتقل من هنا إلى هناك مشتركة القواسم بين سكان كوش وبحيرة تشاد، كذلك هجرات قبائل كانم إلى برنو – ومناطق دارفور إلى كانم أو كانم مناطق دارفور كالداجو والتنجر والزغاوة مثلا وهل هذه الدلالات هي القبائل نفسها المعنية الآن لأننا نجد شعوب كانم بعضها حول بحيرة تشاد، في دولة تشاد، والنيجر، ونيجيريا مثل الكانمبو، وتشابه في التسميات، وصعوبة التفريق بينهم فعندما نذكر مصطلح الكانوري فهي مجموعة في داخل الكانمبو – والكانمبو أقرب الى (أمة) فهي اثنية لغوية تجمع في داخلها أصولاً وأعراقاً مختلفة.

والأمر ينطبق على قبائل أخرى تفرعت وتقسمت من أنساب مختلفة.

كما أن التداخل والصراع بين القبائل الجنوبية في كانم، والبدوية أثر كثيراً في قضية التوازن الإثني، وأشكل الأمر على بعض الكُتاب، فالدراسات أغلبها ارتكزت على حكام كانم، ولم تقتصر على الشعوب، وكان الاهتمام، ينصب على (المايات) في كانم.

ويتضمن المصدر الداخلي الرئيسي (ديوان سلاطين بارنو) مجموعة إثنية يتعذر التحقق من صحتها على ضوء ما تقدمه المصادر الخارجية[20].

ولكن يهمنا أن نعرف أن هناك تحالفات كانت تتم بين الملوك أو السلاطين والجماعات البدوية، بسبب براعتها الحربية التي تساعد في ترسيخ السلطة .

ولعل أكثر من عرفوا بأنهم شعب كانم هم الكانمبو، واستنادا إلى مصادر يرجع تاريخه إلى النصف الاول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي يمدنا ابن سعيد بعدد من التفاصيل البالغة القيمة عن منطقة بحيرة تشاد، ذلك أن (كتاب الجغرافية) يبين بوضوح أنه في زمن دونامة ديبلامي (حوالي 607هـ – 1210م(– 646– هـ –1248م) لم يكن شعب كانم(الكانمبو) قد طرد بعد أسلاف بودوما وردهم إلى جزر بحيرة تشاد[21]. وذلك أن الكانمبو ذكروا بصفة متكررة باعتبارهم شعوب كانم، وأن كانم هو موطنهم مع نزوح بعض العشائر إلبرنو مع الماي إدريس اللوما، ولعل من أفضل المصادر التي تتناول ذلك حروب الماي ادريس اللوما لأحمد فرتو، وهو مؤرخ تلك الفترة.

وإلى الجنوب من بحيرة تشاد في منطقة السهول، سهول الطمي لشاري الأدني اتصل الكانمبو بحضارة قديمة امتازت بفنونها التصويرية الرائعة على حد استنتاج ج. ب، لبيوق وأ . ح، ديتوريب **J.p. le bevuf et am.Detovebet**

وكانوا ومازالوا يشتغلون بالزراعة مع تربية الماشية بشكل أقل كثيرا وبالتركيز على الصناعة بتطبيق تقنيات الحديد (الحدادة)، ولهذه فالكانمبو ينقسمون إلى: (ينبمو، وضو " حداد") قد يجعل البعض ينظر إليهم بأنهم على اختلاف، وهذا غير وارد فهم شعب واحد، وتأتي الزراعة في المرتبة الأولى عند الكانمبو، ومن ثم الماشية، والحدادة، وصيد الأسماك.

مرحلة الاستكشاف

يقول البكري إن عقبة بن نافع الفهري فتح فزان عام 666 (46)هـ كما يذكر أنه على مسيرة خمسة عشر يوما صوب الجنوب كانت تقع قلعة كوار.

فخرج عقبة بن نافع الفهري إلى المغرب بعد معاوية بن حديج، وذلك سنة ست وأربعين ومعه يسربن أرطأة وشريك بن سحيم المرادي، فأقبل حتى نزل بغدامس من سرت فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه في اربعمائة فارس، وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها وأخذ ملوكهم .. ثم سألهم هل وراءكم من أحد قالوا نعم أهل جاوان وهو قصر عظيم على

رأس المفازة على رأس جبل وعر وهو قصبة كوار فسار إليهم خمس عشرة ليلة فحاصرها شهرا فلم يستطع لهم فعل شيء فرأى أمامه قصور كوار فافتتحها[22].

ثانياً: مملكة كانم–برنو

إن إمبراطورية كانم – برنو وهي تشمل منطقة تشاد ونيجيريا والنيجروالكاميرون وافريقيا الوسطى واجزاء أخرى من إفريقيا حيث امتدت وتوسعت وطبقت شهرتها الآفاق .

وهي أحدى أهم الممالك الإسلامية التي قامت في الصحراء الكبرى في الفترة ما بين 800م – 1600م وقد عمرت ثمانية أو تسعة قرون حتى القرن التاسع عشر وقامت بنشر الإسلام في السودان الاوسط، والحفاظ على نشر ثقافته، ولولا قوة نظمها قواعدها التي ارتكزت وقامت عليها لما عاشت كل هذه القرون بصرف النظر عما آلت إليه من سعة وانكماش في حدودها.

وهذه دلالة على قدرتها وثباتها، وإمكاناتها المختلفة من الثقافات، وتنوع الشعوب فيها والعتاد، والنظم الإدارية والتعليمية، وعلاقاتها بالشعوب الأخرى من خلال معاملاتها الخارجية التي أثبتت الوثائق أن هذه الإمبراطورية بلغت كل هذه القوة بعد ان اعتنق ملوكها الإسلام وأصبح الدين الرسمي للدولة كما أن اللغة العربية هي لغتها الرسمية في الخطاب والتواصل بينها وبين الدول الأخرى، وأن هذا الإمتداد كان له تأثيره على المنطقة إلى يومنا هذا، وهذا ما أصّل الثقافة الإسلامية في غرب ووسط إفريقيا، وجعل فيما بعد قيام حركات دعوية كان لها الفضل في ثبات الإسلام في المنطقة وعن نشأة المملكة وتوسعت رقعتها وحدودها، فقد اختلفت الآراء، وتباينت، ولكننا نعلم أن هناك امتداد واسع في رقعتها وكانت محط انظار المسلمين بعد أن انتشر فيها الإسلام وتمكنت ثقافته وتأصلت، وفي مطلع القرن التاسع الميلادي. والثالث الهجري امتدت حتى شملت النيل شرقا والنيجر غربا (جنوب ليبيا وتشاد والنيجر وغرب السودان والفولان وبرنو وإفريقيا الوسطي وشمال الكمرون) [23].

ويقول محمود كعت: " أن صاحب برنو هو أحد سلاطين الدنيا الأربعة العظام " وجاء عن المقريزي على مدى اتساع رقعة هذه الامبراطورية[24] قائلا: " وأعلم أن على ضفة النيل أيضا كانم وملكها مسلم وقاعدة ملكه بلدة اسمها(جيمي) وأول مملكة من جهة مصر بلدة اسمها (زالا) وآخرها بلدة يقال لها(كاكا) وبينها ثلاثة أشهر[25].

وقد انتشر الإسلام في كانم عبر مراحل متعددة وأصبح دين الدولة رسميا في عهد الملك (اومي) وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي (1085– 1240م).

وأصبح الدين من بعد ذلك راسخ القدم، تعد هذه الفترة هي الفترة الذهبية لامبراطورية كانم، فازدهرت وانتشر الدين، ويؤكد لنا ابن خلدون قائلا: " وهم خلق عظيم – يقصد أهل كانم – والإسلام غالب عليهم ومدينتهم جيمي "[26].

ورد في صبح الأعشي عن أثر الإسلام والتزام أهله بهذا الدين في وقت مبكر:

"بلاد كانم هم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد، وسلطان هذا البلد رجل مسلم[27].

وكل ذلك كانت مرحلة جديدة في اتجاه التبادل الثقافي بين إفريقيا والجزيرة العربية على منهاج الإسلام في السودان، وكان من أوائل من نشر الدعوة محمد بن ماني في القرن الحادي عشر،

واجتهدت كانم في نشر الإسلام إلى أن أسست فيما بعد مدرسة ابن (رشيق) وتسمى رواق كانم، ساهم أهل كانم، والتجار القادمون من غرب إفريقيا، وبلاد كانم بنصيب وافر في إنشاء المدن الساحلية على شواطيء البحر الأحمر وأحاطوا أنفسهم بالعلماء، وجعلوا مساجدهم مدارس ودواوين ومؤسسات منتظمة، وقد ارتقى كل ذلك وازدهر في عصر السلطان(دونامة دبلامي 1221- 1259م) الذي قوى من صلاته الخارجية وطور من التعليم سالكا المناهج العلمية وأصبحت شعوب تلك المنطقة هي أول من يتعلم اللغة العربية، ويقول عنه فضل كلود: (وقد كان السلاطين يقيمون المساجد داخل قصورهم للصلاة والتعليم ولا يدعون فرصة لإستقدام مشاهير العلماء إلا استغلوها حتى يستفيد سكان القصروالحاشية والنساء اللاتي كن يحضرن تلك المجالس من وراء حجاب[28].

وفي كتاب إنفاق الميسور في بلاد التكرور يقول الشيخ محمد بيلو: " إن أهل كانم متمسكون بالقرآن وشريعة الإسلام – والإسلام منتشر في طول بلادهم وعرضها حتى عم جميع الطبقات من الحكام والوزراء والرعايا "[29].

وكما يقول المؤرخ إبراهيم طرخان إنّ تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء الكبري يبدأ بدخول الإسلام في دولة كانم وهو ما ذهب إليه المنصفون من كتاب الغرب مثل المؤرخ الفرنسي جويبي **Qouilly** الذين قالوا: إنه بالإسلام يبدأ العصر التاريخي لإفريقيا السوداء[30].

وإن الحضارة الإسلامية واللغة العربية تجذرت لدى علماء كانم ومشايخها واستوطنت في قلوبهم وانتشرت بينهم. ولهذا نجد أن شعوب كانم عامة لا يتقنون اللغة العربية والتعامل بها في حياتهم اليومية لأن الأمر كان مقتصراً على فئة العلماء أما حفظ القرآن وتعليمه فقد كان منتشراً بين الجميع بدون استثناء، والقرآن يعتبر كتاب معظماً ومقدساً يحفظونه ويتعالجون به طلباً للرزق والشفاء وطرد السحر والشواطين، ولا نجد هذا الاهتمام بتفسيره.

وقد اقتصر التعليم على أبناء الشيوخ والسلاطين أكثر، ولم يجد أبناء الطبقة الدنيا والمساكين والفقراء فرصة لتعليم صغارهم وهذا كان له تاثير كبير على التقدم الثقافي في المنطقة .

وكان الاسلام أقرب إلى طبيعة حياتهم، ذكر مارتي **Marty**: " إن ثوب الاسلام على الرغم من بساطته وسهولته لم يكن مصنوعاً على قدَّ الزنوج، فأعد هؤلاء تفصيله على حسب قامتهم، واتخذوا منه زياً يلائم مزاجهم "[31].

الهوامش

(1) أنظر في ذلك : الرسائل السياسية للمؤلف عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ، الرسالة الرابعة : فخر السودان على البيضان ، تحتوي أيضا على الموضوعات :نجباء السودان ، خصال السودان ، كثرة عدد السودان واتساع بلدانهم ، أثر البيئة في لون السودان والبيضان.

(2) الإمام أبي الحسن أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري، فتوح البلدان ، بيروت: لبنان ، 1988، ص 232.

(3)أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية ، مصر–القاهرة: 1340هـ–1922م ، مج 12، ص 274.

(4) أبوالحسن علي السماني، تطبيق نصوص الفكر السياسي الإسلامي في دولة صكتو الإسلامية، الخرطوم السودان ، دار هايل ، الطبعة الأولى 1991م ، ص 22.

(5) أحمد بيلو، أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، المملكة المغربية ، جامعة محمد الخامس ، معهد الدراسات الافريقية ، 1996م، ص 3.

(6) رسالة إفريقيا، العدد الثاني عشر ،18 نوفمبر 1995،الخرطوم – السودان ،ص24.

(7) ديرم لانجي بالتعاون مع باوارو ورايكندو، منطقة بحيرة تشاد، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، المشرف على المجلد : م . الفاسي ،إ . هربك اليونسكو، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، الطبعة الأولى 1989م ، بيروت –لبنان ،ص 482.

(8) ديرك لأنجي، مرجع سابق، ص 248.

(9) ديرك لانجي، ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، افريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر اليونسكو، المشرف على المجلد : ج.ت.نياني ، الطبعة الأولى 1989م ، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، بيروت – لبنان ، ص 247.

(10) أشارت الروايات الشفهية أن الاسم شلم هو الأصح وتعني بلغة الكانمبو: أسود، وكان الملك أسود اللون ونجد أن هذا الاسم منتشر بشكل كبير وسط شعوب الكانمبو وأنه لقب اعتزاز.

(11) ك. مادهو بانيكار، تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا، ترجمة أحمد فؤاد دبلبع ، المجلس الأعلى للثقافة،جمهورية مصر العربية ،1998م، ص 178.

(12) المرجع نفسه، ص 182.

(13) المرجع نفسه، ص 184.

(14) إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية ، طبعة أولى 1975م، ص 6

(15)شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ) ، معجم البلدان ، دار صادر، بيروت –لبنان ، الطبعة: الثانية، 1995 م ، ص 432

(16)أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: 749هـ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي الطبعة: الأولى، 1423 هـ،الجزء الرابه،ص 95

(17) لانجي، مرجع سابق، ص 49.

(18) ك. مادهو بانيكار K.MAHUU PANIKAR تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب افريقيا، ترجمة أحمد فؤاد دبلبع ، المجلس الأعلى للثقافة،جمهورية مصر العربية ،1998م ، ص 190.

(19) ك. مادهو بانيكار، مرجع سابق، ص 194.

(20) ديرك لانجي، بالتعاون مع باواردو وباركيندو، منطقة تشاد عند مفترق الطرق، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، اليونسكو، المشرف على المجلد : م . الفاسي ،إ . هربك اليونسكو، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، الطبعة الأولى 1989م، بيروت –لبنان ، الفصل الخامس ، ص 485.

(21) المرجع نفسه، ص 486.

(22) يرجع اسم (كوار) بربري الأصل ويعني (السود أو الزنوج) ونجد هذا في اللهجة العربية الحسنية في موريتانيا حيث كانت لفظة كوري (وجمعها كوار) تدل على الأفارقة السود غير العبيد (ديرك لانجي، باوارد، باركيندا) منطقة تشاد عند مفترق الطرق، تاريخ إفريقيا – الجزء الرابع – اليونسكو،. المشرف على المجلد : ج.ت.نيابي ، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، الطبعة الأولى 1989م ، بيروت – لبنان ، ص 483؛ ويطلق هذا المصطلح على مجموعة في داخل الكانمبو (كوري) سلاطين البدوما (الباحث).

(23)عبدالفتاح الغنيمي، حركة المد الإسلامي، مكتبة نهضة الشرق، ،الطبعة الأولى 1985م ، القاهرة – جمهورية مصر العربية ص 123.

(24) للمزيد في ذلك أنظر : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق محمد زينهم –مديحة الشرقاوى ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى مصر –القاهرة 1997م ، ص 365.

(25) ابراهيم على طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، مرجع سابق،ص 77.

(26)عبدالرحمن بن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت –لبنان ، 1421هـ-2000م ، ص 199.

(27) القلقشندي، الشيخ أبي العباس أحمد، صبحي الأعشي في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية ، مصر-القاهرة : 1340هـ-1922م .،الجزء الخامس، ص 269.

(28) فضل كلود – العهد الذهبي لإمبراطورية كانم ، فضل كلود دكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، طبعة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1998م– صفحة 160.

وأيضاً كان لهم السبق في السودان حيث كتبوا القرآن بلغة الكانمبو منذ 600 سنة، والمخطوطة توجد في جامعة لندن للدراسات الشرقية والإفريقية.، هذا القرآن كتب بالحرف العربي، واخترعت حروف أخرى لتواكب بعض المخارج في النطق، وهي مكتوبة بلغة الكانمبو القديمة. وقد ظهر أحد أشهر الشعراء في دولة كانم – وسافر إلى دولة الموحدين، وله من عيون الشعر العربي وهو إبراهيم بن اسحاق بن يعقوب الكانمي، كتب من عيون الشعر العربي، وهو يمثل شهادة محلية لأثر التبادل الثقافي (الباحث) .

ونجد ذلك في الالفاظ الدخيلة من لغة البرنو-الكانمبو في اللغة العربية، في حوض بحيرة تشاد نموذجا مثل:

اللفظة الدخيلة في العربية	معناها بالعربية
شوا	عرب
اللنقو	الزقاق
زقيقي	هدية
كليسكو	الفتاة البكر
البرني	المدينة
دنقاية	الغرقة- السجن
كاكا	الجدة
ونجامي	الحلاق
جيني	ملعقة كبيرة
قماجي	الفستان
كردي	كافر

[29] الشيخ محمد بيلو، إنفاق الميسور في بلاد التكرور، المملكة المغربية ، مرجع سابق، ط 1، ص 56.

[30] ابراهيم طرخان، مرجع سابق، ص 77.

[31] محمد عبدالله النقيرة، التأثير الإسلامي في السودان الغربي (غربي افريقية)، مطابع الفرزدق التجارية، المملكة العربية السعودية –الرياض، طبعة أولى 1408هـ-1988م، ص 236 .

المصادر والمراجع

- إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية ، طبعة أولى 1975م .
- أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي الطبعة: الأولى، 1423 هـ ،الجزء الرابه .
- عبدالرحمن بن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السادس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت –لبنان ، 1421هـ-2000م .
- أبوالحسن علي السماني، تطبيق نصوص الفكر السياسي الإسلامي في دولة صكتو الإسلامية، الخرطوم السودان ، دار هايل ، الطبعة الأولى 1991م .
- أحمد بيلو، أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، المملكة المغربية ، جامعة محمد الخامس ، معهد الدراسات الافريقية ، 1996م .
- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق محمد زينهم –مديحة الشرقاوى ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى مصر –القاهرة 1997م.
- الإمام أبي الحسن أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري، فتوح البلدان ، بيروت: لبنان، 1988.
- دكتور عبدالفتاح الغنيمي، حركة المد الإسلامي، مكتبة نهضة الشرق، ،الطبعة الأولى 1985م، القاهرة –جمهورية مصر العربية .
- ديرك لانجي، ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، افريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر اليونسكو، المشرف على المجلد : ج.ت.نياني ، الطبعة الأولى 1989م، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، بيروت – لبنان .
- ديرك لانجي، بالتعاون مع باواردو و . باركيندو، منطقة تشاد عند مفترق الطرق، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثالث، إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، اليونسكو ، المشرف على

المجلد : م . الفاسي ،إ . هربك اليونسكو، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، الطبعة الأولى 1989م ، بيروت –لبنان.

- عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، الرسائل السياسية ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، الرسالة الرابعة : فخر السودان على البيضان، تحتوي أيضا على الموضوعات : نجباء السودان ، خصال السودان ، كثرة عدد السودان واتساع بلدانهم ، أثر البيئة في لون السودان والبيضان.
- أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية ، مصر– القاهرة : 1340هـ–1922م .
- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ) ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت –لبنان ، الطبعة: الثانية، 1995 م .
- ك. مادهو بانيكار K.MAHUU PANIKAR تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب افريقيا، ترجمة أحمد فؤاد دبلبع ، المجلس الأعلى للثقافة،جمهورية مصر العربية ،1998م.
- محمد عبدالله النقيرة، التاثير الاسلامي في السودان الغربي (غربي افريقية)، مطابع الفرزدق االتجارية،المملكة العربية السعودية– الرياض ، طبعة أولى 1408هـ–1988م .
- فضل كلود – العهد الذهبي لإمبراطورية كانم ، فضل كلود دكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، طبعة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1998م.
- رسالة إفريقيا، العدد الثاني عشر ،18 نوفمبر 1995،الخرطوم – السودان .